اسم الدرس : تفسير سورة القارعة

تصنيف الدرس : خطبة

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولد، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام ١] ، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف ١]، الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولد، الحمد لله عدد كل شيء، الحمد لله ملء كل شيء، الحمد لله عدد ما أحصى كتابه، والحمد لله على ما أحصى كتابه.

وأصلي وأسلم على سيد الخلق أجمعين محمد -صلى الله عليه وسلم-بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح لهذه الأمة، فما ترك خيراً إلا ودلنا عليه، وما ترك شرًا إلا وحذرنا منه، فصلاةً وسلامًا دائمين من رب العالمين على أشرف المرسلين محمد -صلى الله عليه وسلم-.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران ١٠٢]

التمسك بكتاب الله من أسباب النجاة

أما بعد أحبتي في الله، أكرر دائمًا وأبدًا أنَّ الله -عز وجل- لم يترك الخلق سُدًى ولم يخلقهم عبثًا ولكن خلقهم لغاية، قال ربنا -سبحانه وتعالى- ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات ٥٦] ولأجل هذه الغاية أرسل ربنا -سبحانه وتعالى- الرسل، وأنزل ربنا -سبحانه وتعالى- الكتب، واصطفى لهذه الأمة خير الرُسل، خاتم المرسلين محمد -صلى الله عليه وسلم- واصطفى لهذه الأمة خير الكتب القرآن الكريم، جعله الله -عز وجل- مهيمنًا على الكتب السابقة، فمن أراد النجاة في هذه الدنيا وفي الآخرة فليتمسك بكتاب الله -سبحانه وتعالى- ويتمسك بسُنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فمن تمسك بهما فقد أفلح ونجا، ومن أعرض عنهما فقد خاب وخسر.

القارعة تقرع أسماع المعرضين

أحبتي في الله معنا اليوم سورة من كتاب الله -عز وجل-، سورة عظيمة جاء بها النبي -صلى الله عليه وسلم- ليقرع أسماع المُعرضين من المُشركين في مكة، أنزلها الله -عز وجل- على قلب النبي -صلى الله عليه وسلم- ليكون من المُنذرين، هذا القرآن نزل على قلب النبي -صلى الله عليه وسلم- ليُنذر به ولا

يكون في صدر النبي -صلى الله عليه وسلم- حرج منه، فتحرك النبي -صلى الله عليه وسلم- بالقرآن وقرأه على مسامع المشركين والمؤمنين، المُقبلين والمُعرضين.

معنا اليوم سورة أُريدك أن تتخيل أنَّك تسمعها من النبي -صلى الله عليه وسلم- لأول مرَّة، تخيّل معي الوضع!، النبي -صلى الله عليه وسلم- يعيش في مكة، كان يُسمَّى بالصادق الأمين، ثم جاء إلى المشركين في قريش، وقال لهم: لقد نزل عليَّ الوحي، إني لكم النذير العريان، إني أُحذركم عذاب يوم عظيم، هم لم يصدقوه، أعرضوا عنه، خافوا على مصالحهم، على دنياهم، على أموالهم، أعرضوا ورضوا بالحياة الدنيا، أعرضوا عن كتاب الله -سبحانه وتعالى-، كذَّبوا النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-، أنكروا يوم البعث، قالوا: لا نصدق أنَّ هناك يومًا يُبعَث فيه الناس، وكيف؟! وتعجبوا وأعرضوا، وكيف ينزل القرآن على رجل منَّا؟!، وكيف تُبعَث الأجساد بعد ما بُليت؟! وكيف وكيف وكيف؟! فأعرضوا عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأعرضوا عن القرآن.

ولكن النبي -صلى الله عليه وسلم- استمر في دعوته، استمر بالصدع بالقرآن، يقرع بالقرآن أسماع المُشركين، أُريدك أن تتخيّل في هذا الوضع،هم في قمة الإعراض!، لا يريدون أن يُصدقوا النبي -صلى الله عليه وسلم-، لا يُصدقون بيوم البعث، ويقف النبي -صلى الله عليه وسلم- وسط المشركين ليقرأ عليهم قول الله -سبحانه وتعالى-، بسم الله الرحمن الرحيم {القارِعَةُ}، تخيّل أول مرّة يسمع الناس هذا اللفظ من النبي -صلى الله عليه وسلم-!

النبي -صلى الله عليه وسلم- يقف وسط المُعرضين الذين لا يصدقون أصلًا بالبعث ولا بالنبي ولا بالقرآن، هذه السورة تُخاطب أسماع المُعرضين عن شيء ينكرونه، لكن هكذا القرآن يستمر في دعوته حتى لو أعرض الناس؛ لأن للقرآن سطوة على القلب يأخذ بمجامع القلب، يأخذ بالعقول.

ما القارعة؟

تخيّل النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول لهم {القارِعَةُ}!، هذا اللفظ عند العرب صوت عظيم، صوت القرع يكون للداهية العظيمة، للحدث الضخم، القضية الشديدة: في الحرب، في المصيبة، في الداهية.

تخيّل أنَّ المشركين يجتمعون على النبي -صلى الله عليه وسلم-: ماذا تقصد؟ يريدون أن يسمعوا ماذا يريد النبي -صلى الله عليه وسلم-؟!هل هي الحرب؟! هل جاءه الوحي بالحرب؟! هل هي المصيبة؟!، هل هي العذاب؟!

{القارِعَةُ} ثم يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-ويقرأ القرآن ﴿مَا القارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ [القارعة ٢-٣] كل هذا والمشركون يستمعون إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-ماذا يقصد؟! ماذا يريد؟!

تخيّل هذه البداية التي تأخذ بالعقول وتأخذ بالقلوب!، هذا الصوت صوت نذير حرب، فيجتمع المشركون، ماذا يقصد؟! بماذا يخوّفنا؟! المسلمون قلّة في مكة، هل من المعقول أنَّه يعلن الحرب علينا؟!، هل جاءه وحي من ربه أنَّ الله -عز وجل-سوف يُنزل العذاب علينا؟! تخيّل أنَّه يُكلمهم بهذه البداية!

صوت القرع، **القرع: هو اصطدام الجسم بآخر يحدث صوتًا ضخمًا** يُستعمَل في الحروب، في المصيبة، حتى في لغة العرب حينما يقولون قرع فلان فلانًا أي: زجره ووعظه وخوّفه وكلّمه بغضب، عندما ترى شخصًا يتحدث إلى آخر بغضب وبقوة وبتحذير ووعظ، هُنا نقول قرع فلان فلانًا.

فهذه السورة تقرع الأسماع، صوت القرع، هذا الصوت يغطي على كل صوت، أي لو أنَّك سمعت مجموعة من الأخبار -نسأل الله السلامة والعافية- لو ابتُلي إنسان بمجموعة من المصائب، ابتُلي في سيارته، ابتُلي في ولده، ابتُلي في صحته، ابتُلي في كذا، لكن يظل هناك خبر هو الذي يسيطر على كل الأخبار، هو الذي يغطي على كل المصائب، هذا الخبر يسمى الطامة، يغطي على كل شيء...الحاقة، القارعة.

هذا الصوت بالرغم من الأصوات المختلفة التي يسمعها الإنسان من مصائب مختلفة، أشغال مختلفة، يترك كل شيء ويلتفت إلى هذا الصوت؛ لأن هذا الصوت يُهدد حياته، هذا الصوت يُهدد مصيره، فيترك كل شيء ويلتفت إلى هذا الصوت العظيم.

﴿القارِعَةُ ۝١ مَا القارِعَةُ ۝٢﴾ [القارعة ١-٢] وكأن النبي -صلى الله عليه وسلم-يقول لهم: مهما حدثتُكم عن القارعة لن أُوفي حقها، لن تستطيع العقول أن تصل إلى كُنهها.

مهما حدثتُكم {وَما أَدراكَ مَا القارِعَةُ} مهما حدثتُكم عن هذا اليوم العظيم، عن المصائب التي سوف تحدث في هذا اليوم، عن الداهية، عن القارعة التي تنزل على قلب الإنسان وعقله وبدنه، مهما حدثتُكم لن تستوعبوا.

{وَما أَدراكَ مَا القارِعَةُ} تخيّل المُشرك يسمع هذا الخبر، فيُقبل على النبي –صلى الله عليه وسلم–ماذا تقصد؟! ماذا تريد؟!

فيقول النبي –صلى الله عليه وسلم– {يوم } أي القارعة، **أحدثكم عن يوم، أُخوفكم من زمان، أُخوفكم من حَدَث سوف يأتي، اقتنعتم أو رفضتم، قبلتم أو جحدتم، هذا اليوم سوف يأتي.**

﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨﴾ [القارعة ٤-٨]

عرض الحقائق القرآنية

هذه سورة حينما تقرأها ليس فيها خطاب مباشر لأي أَحد، بعكس سورة التكاثر {أَلهاكُمُ التَّكاثُرُ}: خطاب مباشر للمُعرض.

هذه السورة تتكلم عن حقائق قرآنية، الموجودون في هذا الزمان مُعرِضون عنها، الذين يسمعون النبي –صلى الله عليه وسلم–الآن، أغلبهم في تلك اللحظة –لحظة النزول– لا يريدون أن يسمعوا عنها، بل يُكذّبون بالبعث، وبالرغم من ذلك يقوم النبي –صلى الله عليه وسلم– يجهر بهذه الحقائق قَبلَها من قَبلَها وأعرض عنها من أعرض عنها.

اقرأ السورة مرَّة أخرى تجد الآيات لا تخاطب شخصًا بعينه، {فَأَمّا مَن ثَقُلَت مَوازينُهُ} و {وَأَمّا مَن خَفَّت مَوازينُهُ} لا تخاطب أحدًا، السورة تتكلم عن حقائق قرآنية، هكذا ينبغي أن يُعرَض القرآن، نحن نتكلم عن حقائق سوف تحدث.

ليس معنى أن بعض الناس ينكر يوم القيامة أننا لا نتحدث عنه، بعض الناس يقول هل يصح أن نتحدث مع المُعرض أو المُلحد أو الجاحد أو الكافر نعرض عليه حقائق هو يرفضها؟ نعم، تعرض

عليه، تَعرِض عليه هذه الحقائق وبصورة قطعية، أنتَ تُكلمُه عن معتقدك، أنتَ تُكلمُه عن يقينك، تُكلمُه عمّا رأيت من أحداث يوم القيامة في القرآن، أنت تُحدثه عمّا رأيت لا عمّا سمعت.

تخيّل لو أنّك رأيت نارًا عظيمة تحرق الناس!، تحرق البيوت!، تحرق الأموال والأولاد!، ثم انطلقت مسرعًا إلى قومٍ لم تأتهم النار بعد، تُحذرهم من النار، فقالوا لك: نحن لا نصدقك، ليس هناك نار ليس ثمّة نار، كيف سيكون حديثك؟! هل ستقول لهم طالما أنّكم تعتقدون بعدم وجود نار، إذًا لا نتحدث في موضوع النار ونتحدث في موضوع آخر، والنار سوف تأتي، حدثهم عمّا رأيت،حذرهم، قُم بدورك، قَبِلوا أو رفضوا آمنوا أو جحدوا، حدّثهم عن النار التي سوف تأتي، هكذا فعل النبي –صلى الله عليه وسلم–.

قالوا: نحن نرفض حديثك، لا نصدقك، وبالرغم من ذلك يقوم النبي –صلى الله عليه وسلم– ويقول لهم: {القارِعَةُ}، حتى العلماء اختلفوا ما المعني هنا؟...هل سوف تأتي القارعة؟! أو أُحذّركم القارعة؟!

هكذا جاءت الكلمة، حتى حار المُفسّرون هل الكلمة هي جملة؟! أين بقية الجملة؟!

هذه الكلمة جاءت لهذا المقصد: أن يتفكر الناس **ما هي القارعة في حياتي؟**، ما هي المصيبة التي إن سمعت عنها في حياتي سوف يتوقف تفكيري في كل شيء وانشغل بهذه المصيبة؟ ما هو أعظم موقف مرَّ به الإنسان؟! ما هي أكبر مصيبة تحدث للإنسان؟!، ما هو أعظم صوت يأتي إلى أذن الإنسان؟

تأتي هذه السورة التي تقول لك انشغِل بمصيرك الأخروي، إيَّاك أن تُعرِض عن مصيرك الأخروي.

المشهد الصوتي والمشهد المرئي

{ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣} أُريدك أن تسمع القرآن وكأنَّك تشاهده، وكأنَّك تشاهد الأحداث التي تُتلى عليك، بدأت السورة بمشهد صوتي: القرع هو صوت عظيم، بدأت السورة بمشهد صوتي،أي كأنَّك جالس تُغمض عينيك، وتستمع للقرآن فتسمع {القارِعَةُ} فتتخيل صوت عظيم هزَّ قلوب الناس وعقولهم وأخذ بقلوبهم، ثم تستمر في قراءة السورة { مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣}.

{يَومَ يَكونُ النّاسُ} هنا بدء مشهد مرئي، بدأت الصورة تتضح أكثر، نفس الذي حدث في سورة العاديات السورة التي قبلها مباشرةً، بدأت بمشهد صوتي، صوت الخيل {وَالعادِياتِ ضَبحًا} صوت ضبح الخيل، أنت تسمعه {فَالمورِياتِ قَدحًا} مشهد الشرارة التي تخرج من أرجل الخيل عندما تصطدم بالحجارة وتسير في الجهاد في سبيل الله.

إذًا أحيانًا من جمال القرآن يبدأ بصورة غير مكتملة حتى تنظر إليها وتنتظر اكتمال المشهد، تخيّل أنَّك تفتح مشهد مرئي وبدأت الشاشة سوداء أمامك وتسمع أصوات حرب، وأصوات قتل، وأصوات صراخ النَّاس وعويلهم، تخيّل أنَّك تسمع والشاشة سوداء!، فترتقب أن تفتح الصورة، حينما تفتح الصورة ماذا ستشاهد؟! فالصورة الآن: لا ترى شيئًا ولكننا نسمع صوت حرب، صوت نذير، صوت فزع ورعب، صوت داهية، صوت مصيبة، ثم يبدأ المشهد يتضح،لترى الناس كالفراش المبثوث.

هؤلاء العقلاء الذين كانوا يسيرون على الأرض أمامنا يصبحون كالفراش المبثوث، **هذا الفراش رمز قلة العقل، رمز الضعف، رمز الذلة، رمز الانقلاب والتهافت على النار، هذا الفراش لا يفكر في شيء ينخدع بأدني صورة، يرى النار فيحسبُها شيئًا عظيمًا فيقبل عليها فيسقط فيها.**

هكذا حذر النبي –صلى الله عليه وسلم– (وأنا آخذ بحجزكم عن النار)[1]، مثَّل النبي –صلى الله عليه وسلم–وهو يحذرنا من النار، وأن منا من سيكون كالفراش الذي يسقط في النار.

الفراش المبثوث متجه في كل الاتجاهات، يسير في كل الاتجاهات، فتقول:هكذا الناس لأنهم ضعاف، هكذا الناس لأنهم خِفاف، هكذا الناس لأن الأمر عظيم وهم ليسوا بالقوة التي تتحمل هذا الأمر العظيم.

فتنظر إلى الجبال {وتكون الجبال كالعهن المنفوش}، أثقل مشهد تراه في الدنيا أمامك مشهد الجبل الذي يضرب بجذوره في الأرض–هذا الجبل من الصخور– أثقل مشهد تراه في الدنيا يصبح يوم القيامة **كالعهن المنفوش: الصوف الملون، المنتشر**، تخيل المشهد! الشاشة كانت سوداء، صوت رعب، صوت فزع، صوت حرب، بدأت الصورة تتضح، وجدت أشياء تسير في كل مكان، ما هذا؟ هؤلاء الناس كالفراش

١ [عن أبي هريرة:] إنَّما مَثَلِي ومَثَلُ النّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نارًا، فَلَمّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ جَعَلَ الفَراشُ وهذِهِ الدَّوابُّ الَّتي تَقَعُ في النّارِ يَقَعْنَ فيها، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ ويَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فيها، فأنا آخُذُ بحُجَزِكُمْ عَنِ النّارِ، وهُمْ يَقْتَحِمُونَ فيها.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٤٨٣ • [صحيح]

المبثوث، ثم بدأ المشهد تظهر فيه ألوان، مشهد العهن المنفوش، مشهد الجبال كالصوف الملون يتطاير في كل مكان، أنت تسأل: ما الذي يثبت إذًا؟! إذا طار الناس كالفراش المبثوث، ونُسفت الجبال وأصبحت كالعهن المنفوش، ما الذي يثبت إذًا؟!

اليوم تثبت الأعمال فقط

إذا لم تثبت الجبال فاليوم تثبت الأعمال فقط { فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ } ها هو اللفظ الذي تبحث عنه، **لفظ الثقل في مشهد الخفة**، مشهد: كل شيء أصبح خفيفًا، كل شيء أصبح متطايرًا، الناس والجبال أصبحوا متطايرين، حينما ترى هذا المشهد فأنتَ تريد أن تثبت، تريد أن تبحث عن شيء ثقيل تتمسك به، فيخبرك الله -عز وجل-بأنه **لا يثبت في هذا الوقت– الذى أصبحت فيه الجبال كالعهن المنفوش– إلا الأعمال**.

{ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ } أي أن هناك أُناس في وسط هذا المشهد ﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل ٨٩] ، في وسط هذا الفزع، في وسط هذه المصائب تجد أناسًا في قمة الأمن، لا يضرهم هذا المشهد...من هم؟ { فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ }.

انقسم الناس إلى قسمين {فأما من ثقلت} لفظ الثقل أنتَ تبحث عنه منذ سمعت صوت القارعة، هذا لمن يلقي سمعه للقرآن ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق ٣٧] هذا القرآن يُذكر من؟ يُذكر الذي له قلب يشاهد به هذه الأحداث ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق ٣٧] وكأنه يشاهد هذه الأحداث.

بدأت السورة بمشهد مرعب تبحث عن ملجأ، تبحث عن مكان آمن، نظرت إلي الناس وهم كالفراش المبثوث، ذهبت إلى الجبال فهي كالعهن المنفوش.

جاء لفظ الثقل {فأما من ثقلت موازينه} وهذه مصيبة عظيمة أن الأعمال ستوزن، أن كل ما مر بنا في الحياة لم يكن عبثًا، أن كل الأحداث والكلمات والمواقف والخواطر سوف تأتي وتوضع في الميزان، إن الله لا يظلم الناس شيئًا ﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء ٤٧]

مصيبة حينما يأتي الإنسان لهذا المشهد، مشهد الجبال والناس، ثم يرى الأعمال يُؤتى بها لتوضع في الميزان {فأما من ثقلت موازينه} القضية ليست في ميزان واحد؛ لأنه ليس عمل واحد، مصيبة وزن الأعمال، بعض الناس كان صاحب مناصبٍ في الدنيا، كانت له سطوة في الدنيا، له كلمة مسموعة في الدنيا، قال النبي: -صلى الله عليه وسلم- (يؤتى بالرجل السمين العظيم يوم القيامة فيوزن)- يوضع في الميزان -(فلا يزن عند الله)-ليس عند الناس- (جناح بعوضة).[٢]

الموازين يوم القيامة

قال ربنا -سبحانه وتعالى- ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة ٣] انقلاب في الموازين، فلان العظيم السيد الشريف يصبح كالفراش المبثوث، فلان الذي لا يسمع له ولا يؤبه له الذي كان في الدنيا عند الناس حقيرًا وضيعًا ها هو ملك من ملوك الآخرة، هو من سادات الآخرة، ها هو في ظل عرش الرحمن، ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة ٣] انقلاب في الموازين، الموازين عند الله وليست عند الناس.

ما قيمة أعمالنا عند الله؟ ما قيمة كلماتنا عند الله؟ ما قيمة قلوبنا عند الله؟

حينما يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-

- أن الأذن التي لا تصلي صلاة الفجر وتعرض عنها وتنام عن الصلاة يبول فيها الشيطان[٣]،
- وأن الرأس التي تنام عن الصلاة متعمدة تُحطم في القبر[٤]،

---

٢ [عن أبي هريرة:] إنَّه لَيَأْتي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَومَ القِيامَةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ، وقالَ: اقْرَؤُوا، {فَلا نُقِيمُ لهمْ يَومَ القِيامَةِ وزْنًا} البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٧٢٩ • [صحيح]

٣ [عن عبدالله بن مسعود:] ذُكِرَ عِنْدَ النبيِّ ﷺ رَجُلٌ، فقِيلَ: ما زالَ نائِمًا حتّى أصْبَحَ، ما قامَ إلى الصَّلاةِ، فَقالَ: بالَ الشَّيْطانُ في أُذُنِهِ. البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ١١٤٤ • [صحيح] • أخرجه البخاري (١١٤٤) واللفظ له، ومسلم (٧٧٤)

٤ [عن سمرة بن جندب:] كانَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ممَّا يُكْثِرُ أنْ يَقُولَ لأصْحابِهِ: هلْ رَأَى أحَدٌ مِنكُم مِن رُؤْيا قالَ: فَيَقُصُّ عليه مَن شاءَ اللَّهُ أنْ يَقُصَّ، وإنَّه قالَ ذاتَ غَداةٍ: إنَّه أتاني اللَّيْلَةَ آتِيانِ، وإنَّهُما ابْتَعَثاني، وإنَّهُما قالا لي انْطَلِقْ، وإنِّي انْطَلَقْتُ معهُما، وإنَّا أتَيْنا علَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وإذا آخَرُ قائِمٌ عليه بصَخْرَةٍ، وإذا هو يَهْوِي بالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ ها هُنا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فلا يَرْجِعُ إلَيْهِ حتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كما كانَ، ثُمَّ يَعُودُ عليه فَيَفْعَلُ به مِثْلَ ما فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى قالَ: قُلْتُ لهما: سُبْحانَ اللَّهِ ما هذانِ؟ قالَ: قالا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ قالَ: فانْطَلَقْنا، فأتَيْنا علَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفاهُ، وإذا آخَرُ قائِمٌ عليه بكَلُّوبٍ مِن حَدِيدٍ، وإذا هو يَأْتِي أحَدَ شِقَّيْ وجْهِهِ فيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إلى قَفاهُ، ومَنْخِرَهُ إلى قَفاهُ، وعَيْنَهُ إلى قَفاهُ، - قالَ: ورُبَّما قالَ أبو رَجاءٍ: فَيَشُقُّ - قالَ: ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إلى الجانِبِ الآخَرِ فَيَفْعَلُ به مِثْلَ ما فَعَلَ بالجانِبِ الأوَّلِ، فَما يَفْرُغُ مِن ذلكَ الجانِبِ حتَّى يَصِحَّ ذلكَ الجانِبُ كما كانَ، ثُمَّ يَعُودُ عليه فَيَفْعَلُ مِثْلَ ما فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى قالَ: قُلْتُ: سُبْحانَ اللَّهِ ما هذانِ؟ قالَ: قالا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ، فانْطَلَقْنا، فأتَيْنا علَى مِثْلِ التَّنُّورِ - قالَ: فأحْسِبُ أنَّه كانَ يقولُ - فإذا فيه لَغَطٌ وأصْواتٌ قالَ: فاطَّلَعْنا فِيهِ، فإذا فيه رِجالٌ ونِساءٌ عُراةٌ، وإذا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِن أسْفَلَ منهمْ، فإذا أتاهُمْ ذلكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا قالَ: قُلْتُ لهما: ما هَؤُلاءِ؟ قالَ: قالا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ قالَ: فانْطَلَقْنا، فأتَيْنا علَى نَهَرٍ - حَسِبْتُ أنَّه كانَ يقولُ - أحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، وإذا في النَّهَرِ رَجُلٌ سابِحٌ يَسْبَحُ، وإذا علَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قدْ جَمَ

- وأن البيوت التي لا تُصلي وتُعرض عن الصلاة تستحق التحريق، النبي -صلى الله عليه وسلم- همَّ بذلك، همَّ أن يحرق بيوت المنافقين الذين يُعرضون عن صلاة الجماعة[٥].

لماذا تُحرق البيوت وتكسر الرؤوس ويُبال في الأذن؟ لأنها لا قيمة لها عند الله -عز وجل- بالرغم من أن هذه البيوت مُعظمة عند الناس، هذه الرؤوس من أذكى الرؤوس في الأرض ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم ٧]

إذًا الموازين تظهر على حقيقتها، لطالما عاش الناس في الوهم، لطالما عاشوا بموازين وهمية، فيأتي الوزن الحق {فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية}، رضي عن الله ورضي الله عنه وهو آمن من هذا الفزع، لماذا؟ لأنه لم يكن كالفراش المبثوث في الدنيا، لم يكن يتهافت على الألوان المزيفة والأفكار الضالة والشهوات.

لكن الذي كان يعيش كالفراشة في الدنيا يقبل على كل شيء، إذا عُرضت له أي شهوة أقبل عليها وأي شبهة قبِلها يصبح يوم القيامة {وأما من خفت موازينه}.

عِنْدَهُ حِجارَةً كَثِيرَةً، وإذا ذلكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ ما يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذلكَ الذي قدْ جَمع عِنْدَهُ الحِجارَةَ، فَيَفْغَرُ له فاهُ فيُلْقِمُهُ حَجَرًا فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلَيْهِ كُلَّما رَجَعَ إلَيْهِ فَغَرَ له فاهُ فألْقَمَهُ حَجَرًا قالَ: قُلتُ لهما: ما هذانِ؟ قالَ: قالا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ قالَ: فانْطَلَقْنا، فأتَيْنا علَى رَجُلٍ كَرِيهٍ المَرْآةِ، كَأكْرَهِ ما أنْتَ راءٍ رَجُلًا مَرْآةً، وإذا عِنْدَهُ نارٌ يَحُشُّها ويَسْعَى حَوْلَها قالَ: قُلتُ لهما: ما هذا؟ قالَ: قالا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ، فانْطَلَقْنا، فأتَيْنا علَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ، فيها مِن كُلِّ لَوْنِ الرَّبِيعِ، وإذا بيْنَ ظَهْرَيِ الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ، لا أكَادُ أرَى رَأْسَهُ طُولًا في السَّماءِ، وإذا حَوْلَ الرَّجُلِ مِن أكْثَرِ ولْدانٍ رَأيْتُهُمْ قَطُّ قالَ: قُلتُ لهما: ما هذا ما هَؤُلاءِ؟ قالَ: قالا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ قالَ: فانْطَلَقْنا فانْتَهَيْنا إلى رَوْضَةٍ عَظِيمَةٍ، لَمْ أرَ رَوْضَةً قَطُّ أعْظَمَ مِنْها ولا أحْسَنَ قالَ: قالا لِي: ارْقَ فيها قالَ: فارْتَقَيْنا فيها، فانْتَهَيْنا إلى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بلَبِنِ ذَهَبٍ ولَبِنِ فِضَّةٍ، فأتَيْنا بابَ المَدِينَةِ فاسْتَفْتَحْنا فَفُتِحَ لنا فَدَخَلْناها، فَتَلَقَّانا فيها رِجالٌ شَطْرٌ مِن خَلْقِهِمْ كَأحْسَنِ ما أنْتَ راءٍ، وشَطْرٌ كَأقْبَحِ ما أنْتَ راءٍ قالَ: قالا لهمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا في ذلكَ النَّهَرِ قالَ: وإذا نَهَرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأنَّ ماءَهُ المَحْضُ في البَياضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إلَيْنا قدْ ذَهَبَ ذلكَ السُّوءُ عنْهُمْ، فَصارُوا في أحْسَنِ صُورَةٍ قالَ: قالا لِي: هذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ وهذاكَ مَنْزِلُكَ قالَ: فَسَما بَصَرِي صُعُدًا فإذا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبابَةِ البَيْضاءِ قالَ: قالا لِي: هذاكَ مَنْزِلُكَ قالَ: قُلتُ لهما: بارَكَ اللَّهُ فِيكُما ذَرانِي فأدْخُلَهُ، قالَا: أمَّا الآنَ فلا، وأنْتَ داخِلَهُ قالَ: قُلتُ لهُما: فإنِّي قدْ رَأيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا، فَما هذا الذي رَأيْتُ؟ قالَ: قالَا لِي: أما إنَّا سَنُخْبِرُكَ، **أمَّا الرَّجُلُ الأوَّلُ الذي أتَيْتَ عليه يُثْلَغُ رَأْسُهُ بالحَجَرِ، فإنَّه الرَّجُلُ يَأْخُذُ القُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ ويَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ المَكْتُوبَةِ**، وأمَّا الرَّجُلُ الذي أتَيْتَ عليه، يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إلى قَفَاهُ، ومَنْخِرُهُ إلى قَفَاهُ، وعَيْنُهُ إلى قَفَاهُ، فإنَّه الرَّجُلُ يَغْدُو مِن بَيْتِهِ، فَيَكْذِبُ الكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ، وأمَّا الرِّجالُ والنِّساءُ العُرَاةُ الَّذِينَ في مِثْلِ بِناءِ التَّنُّورِ، فإنَّهُمُ الزُّنَاةُ والزَّوَانِي، وأمَّا الرَّجُلُ الذي أتَيْتَ عليه يَسْبَحُ في النَّهَرِ ويُلْقَمُ الحَجَرَ، فإنَّه آكِلُ الرِّبا، وأمَّا الرَّجُلُ الكَرِيهُ المَرْآةِ، الذي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّها ويَسْعَى حَوْلَها، فإنَّه مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ، وأمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الذي في الرَّوْضَةِ فإنَّه إبْرَاهِيمُ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأمَّا الوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ علَى الفِطْرَةِ قالَ: فَقالَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ: يا رَسولَ اللَّهِ، وأوْلَادُ المُشْرِكِينَ؟ فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: وأوْلَادُ المُشْرِكِينَ، وأمَّا القَوْمُ الَّذِينَ كانُوا شَطْرٌ منهمْ حَسَنًا وشَطْرٌ قَبِيحًا، فإنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا، تَجَاوَزَ اللَّهُ عنْهُمْ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٧٠٤٧ • [صحيح] • شرح رواية أخرى

٥ [عن عمرو بن أم مكتوم:] إنِّي لأهُمُّ أن أجعلَ للنّاسِ إمامًا، ثمّ أخرجُ، فلا أقدِرُ على إنسانٍ يتخلَّفُ عن الصَّلاةِ في بيتِه إلّا أحرقْتُه عليهِ فقال ابنُ أمِّ مكتومٍ: يا رسولَ اللهِ ! إنَّ بَيني وبينَ المسجدِ نَخلًا وشجرًا، ولا أقدِرُ على قائدٍ كلَّ ساعةٍ، أيسعُني أن أصلِّيَ في بَيتي ؟ قال: أتسمَعُ الإقامةَ؟ قال: نعَم قال: فأتِها

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترغيب ٤٢٩ • حسن صحيح

كيف يصبح الإنسان ثقيلاً؟

كيف يصبح الإنسان ثقيلاً؟ بإيمانه : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلًا﴾ [المزمل ٥] أن تتمسك بالوحي حتى لا تُفتن كالفراش، حتى لا تطير كالعهن المنفوش، لابد أن تكون ثقيلاً، ألا تُستخف مهما عُرضت عليك الشبهات والشهوات، أنت تحمل في قلبك إيمانًا ثقيلاً، فالقضية ليست بوزن البدن.

ها هو ابن مسعود رضي الله عنه يقف على الشجرة فضحك الصحابة من دِقَّة سَاقيه، فقال النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–: (ما يضحككم؟)قالوا: من دقة ساقيه، قال النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–:(والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أُحد)[٦] هذه الساق التي وقفت وجهرت بالقرآن، هذه الساق التي هاجرت في سبيل الله، وجاهدت في سبيل الله، وتعلمت العلم ونشرت العلم هي أثقل عند الله من جبل أُحد.

القضية أن الموازين مختلفة تمامًا، إذا كان الناس لهم تعاملات وتقييمات معينة في الدنيا، فالتعامل مختلف تمامًا يوم القيامة، يحدث انقلاب في الموازين {فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية}.

المصيبة التي لا تستدرك

{وأما من خفت موازينه} مصيبة لا حل لها، لا تُستدرك، هناك مصائب في الدنيا يمكن أن يكون لها حل، مثلاً مرض صعب يمكن أن نبحث له عن علاج في الخارج، فقير نبحث عمن يسدد دينه، يوجد مصائب لها حلول لكن هذه مصيبة ليس لها حل، مصيبة وضع الأعمال في الميزان؛ثم لا يثقل الميزان، توضع كل الأعمال، العمل تلو الآخر حتى قاربت الأعمال على النفاذ والميزان لازال خفيفًا!

تخيل مشهد إنسان كل أعماله توضع والميزان يزداد خفة!، المصير سيُحدد وتنتهي الأعمال وتنفذ وخفت الموازين.

{وأما من خفت موازينه} ما الذي سيحدث له {فأمه هاوية}

---

٦ [عن عبدالله بن مسعود:] أنَّ عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ كان يحتَزُّ لرسولِ اللهِ ﷺ سواكًا مِن أراكٍ وكان في ساقَيْهِ دقَّةٌ فضحِك القومُ فقال النَّبيُّ ﷺ: (ما يُضحِكُكم مِن دقَّةِ ساقَيْهِ والَّذي نفسي بيدِه إنَّهما أثقَلُ في الميزانِ مِن أُحُدٍ)
ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٧٠٦٩ • أخرجه في صحيحه

ما معنى أُمه هاوية؟

قال بعض أهل العلم **أُمه يعني مأواه الذي يتولاه، الذي يعامله معاملة الأم ولكن بالعذاب، أي الذي يطعمه ويغذيه ويسقيه ويعطيه اللباس،كل هذه الأشياء: لباسه من نار وطعامه من نار، وشرابه من نار وحياته من نار، فهي تتولى أمره.**

أمه هي الهاوية فهو وصف لجهنم، أي أمه نار هاوية عميقة، أي مأواه ومصيره الذي يتولى أموره: النار ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُۖ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المجادلة ٨] حسبه جهنم أي كافيه جهنم.

مقدمة الرأس تُسمى أم الرأس، يُقال ضربته على أم رأسه أي مقدمة رأسه، فقال بعض أهل العلم **أمه هاوية أي أن رأسه تنقلب وتسقط في جهنم،** يسقط ويهوي في جهنم، لكن ليس بقدميه، أي ينزل إلى جهنم –والعياذ بالله– منكوسًا على رأسه، حصل له انقلاب فبدل أن ينزل النار –والعياذ بالله– بقدميه يهوى في جهنم ولكن منكساً على رأسه، فقالوا: {فأمه هاوية} أي رأسه تسبقه إلى جهنم.

هذه الرأس التي أعرضت وتكبرت وتجبرت، هذه الرأس التي اغترت بألوان الشهوات والشبهات، والتي كانت في الدنيا كالفراش المبثوث، ها هي تنقلب وتُنكس وتنزل في جهنم –والعياذ بالله–. فأم رأسه هاوية أي رأسه تسبقه إلى جهنم وتهوى به في جهنم.

وقيل: **فأمه هاوية أشبه بمثل تضربه العرب ثكلتك أمك: أي يا لمصيبتك، يا لحزن والدتك عليك، ولن ينفعه حزن الناس عليه، أمه هاوية أشبه ب" ياويل أمه أو ثكلته أمه".**

إذًا ما الذى سيحدث له؟ {وما أدراك ماهيه} هذه أيضًا لا توصف كالقارعة، لا يستطيع العقل البشري أن يتخيلها؛لذلك لما بدأت السورة ب {القارعة} ثم {كالفراش المبثوث} فما بالك أنت بالذي يحدث؟ ما الحدث الذي يحدث في الدنيا فيفزع الناس فتراهم يجرون ويصطدمون ببعضهم ويسيرون في كل الاتجاهات ويصبحون كالفراش؟!

تخيل حدث زلزال مثلاً!، زلزال عظيم وتسقط البيوت وتنهار، وحرائق شتى في كل مكان، انظر إلى تفاعل الناس!... هكذا الناس يوم القيامة يتركون كل شيء، يسيرون في كل اتجاه، هكذا الناس يوم القيامة، الأمر جلل عظيم.

{وما أدراك ماهيه نار حامية} **كل نار حامية، كل نار لابُد أنها حامية، لكن تخيل أن الله –عز وجل– يصف هذه النار بأنها حامية! فكيف هي!** ليست كنار الدنيا، بل أعظم بكثير أضعاف مُضاعفة، سبعون ضعفًا وليست سبعين مرة ضعف نار الدنيا الحالية، بل سبعون ضعف من أي نار يمكن أن يصل لها الإنسان في الدنيا.

تخيل نار جهنم سبعين ضعف من هذه النار التي يمكن أن تصهر الحديد مثلا في الدنيا!، تخيل يوم القيامة النار أشد منها وأعظم منها!؛ لأن **ليس في الآخرة من الدنيا إلا الأسماء، لكن كُنه الشيء مختلف... كنعيم الجنة، كذلك عذاب النار –والعياذ بالله–.**

{نار حامية} كما قال ربنا –عز وجل– في هذه السورة، وفي السورة التي تليها سورة الهمزة قال تعالى {نار موقدة} **أي لا تنطفئ، أي أن النار لا تهدأ أبدًا**، النار في الدنيا قد تخبو وتهدأ، ثم تشتعل مرة أخرى، لكن هذه النار لا تهدأ أبدًا من غيظها على هذا المجرم، على هذا المُعرض، على هذه الرأس التي أعرضت عن كتاب الله.

إذًا المصيبة العظيمة في هذه السورة؛ القارعة، المصيبة والحدث الجلل: هلموا إلى وزن الأعمال، المصيبة العظيمة في هذه السورة أن الأعمال ستوزَن.

بعد أن تغلق هذه السورة ارجع إلى أعمالك، السورة لم تخاطب أحداً بعينه، هي حقائق، طلقات من الحقائق مستمرة، قَبِلها من قَبِلها وجحدها من جحدها.

{القارعة ما القارعة} تخيل النبي –صلى الله عليه وسلم– يقوم ثم يقرأ السورة ثم ينصرف لم يُكلم أحدًا!، قوة الحق، قوة القرآن، قوة الحقيقة القرآنية وهي تُعرَض على القلوب، هكذا لابد أن تكون دعوتنا، هكذا لابد أن نُحدث الناس بالقرآن ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق ٤٥]. أسأل الله –عز وجل– أن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن.

تذكير الناس بالقرآن

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، محمد -صلى الله عليه وسلم- هذا الشوط العظيم في جزء عم الكل يحفظه، لكننا من كثرة سماعنا له وقراءتنا لم نعد نتدبر فيه، في حين أن هذه السور هي التي غيرت حياة الصحابة -رضوان الله عليهم-، هي التي غيرت اختياراتهم في الحياة، هي التي غيرت طريقهم تمامًا، هذه السور هي التي بدأ بها النبي -صلى الله عليه وسلم-.

(أول ما نزل من القرآن المفصل) [٧]كما قالت أُمنا عائشة، فيه ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس نزل عليهم الحلال والحرام، حتى إذا **ثاب الناس: عادوا إلى رشدهم وأفاقوا من غفلتهم**، ولن يعود الناس إلى عقولهم ولن يفيقوا من غفلتهم إلا بهذا الخطاب القرآني كما بدأ النبي -صلى الله عليه وسلم- دعوته.

بدأ النبي -صلى الله عليه وسلم- مع قوم مُعرضين، مُشركين، رافضين للوحى، كافرين بيوم القيامة، وبدأ النبي -صلى الله عليه وسلم- معهم بهذا الخطاب.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك ١٤] الذي خلقهم، هو الذي أنزل لهم هذا الوحي،هذا الشوط العظيم، **حينما تقرأ من أول سورة الزلزلة-زلزلة الناس حتى يفيقوا- ثم صوت المجاهدين المنطلقين لنصرة الدين في العاديات، ثم صوت القارعة الذي يقرع الأسماع والقلوب والعقول، ثم الخطاب المباشر في التكاثر فالذي لم يشعر بالزلزلة ولم يسمع صوت العاديات ولا صوت القارعة فقد ألهاه التكاثر وإنه والعصر لخاسر، ولن ينفعه ماله الذي جمعه وعدده**، هكذا السور المتتاليات؛ إذا زلزلت الأرض زلزالها، والعاديات ضبحًا، ثم القارعة، ثم ألهاكم التكاثر، ثم والعصر إن الإنسان لفي خُسر، ثم ويل لكل هُمزة لُمزة، انظر إلى هذا الشوط العظيم، هذه الهزات العنيفة التي تأخذ بالقلوب من شهوات الدنيا والانشغال بها.

٧ [عن عائشة أم المؤمنين:] إِنِّي عِنْدَ عائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْها، إذْ جاءها عِراقِيٌّ، فَقالَ: أيُّ الكَفَنِ خَيْرٌ؟ قالَتْ: ويْحَكَ، وما يَضُرُّكَ؟ قالَ: يا أُمَّ المُؤْمِنِينَ، أرِينِي مُصْحَفَكِ؟ قالَتْ: لِمَ؟ قالَ: لَعَلِّي أُؤَلِّفُ القُرْآنَ عليه، فإنَّه يُقْرَأُ غيرَ مُؤَلَّفٍ، قالَتْ: وما يَضُرُّكَ أيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟ إنَّما نَزَلَ أوَّلَ ما نَزَلَ منه سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيها ذِكْرُ الجَنَّةِ والنَّارِ، حتَّى إذا ثابَ النَّاسُ إلى الإسْلامِ نَزَلَ الحَلالُ والحَرامُ، ولو نَزَلَ أوَّلَ شيءٍ: لا تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقالوا: لا نَدَعُ الخَمْرَ أبَدًا، ولو نَزَلَ: لا تَزْنُوا، لَقالوا: لا نَدَعُ الزِّنا أبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بمَكَّةَ على مُحَمَّدٍ ﷺ وإنِّي لَجارِيَةٌ ألْعَبُ: {بَلِ السّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ والسّاعَةُ أدْهى وأمَرُّ} وما نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ والنِّساءِ إلّا وأنا عِنْدَهُ، قالَ: فأخْرَجَتْ له المُصْحَفَ، فأمْلَتْ عليه آيَ السُّوَرِ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٩٩٣ • [صحيح] • شرح الحديث

تخيل مشهد النبي –صلى الله عليه وسلم– يقف على جبل يكلم الناس المعرضين!، الناس في الأسواق، وهذا يشرب الخمر، وهذا يُرابي، وهذا يئد ابنته في الرمال، وهذا وهذا وهذا...، ويقوم النبي –صلى الله عليه وسلم–ويقرأ عليهم هذا القرآن، فيلتفت إليه من يلتفت، ويعي من يعي، ثم الناس أمام هذا الخطاب إما مؤمن أو جاحد.

الناس أمام هذا الخطاب إما مؤمن مقبل خاف على مصيره، أو بعد أن أيقن أن هذا الكلام ليس من كلام البشر يجحده!

تخيل قريش تقول على النبي –صلى الله عليه وسلم–"لقد كان بيننا " ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾ [يونس ١٦] ، لمقق يتكلم بمثل هذا الكلام، من أين جاء بهذا الكلام؟!، من أين جاء بهذه القوة؟!، من أين جاء بهذا اليقين؟!، إنه من عند الله –تعالى–.

هو يحدثهم عن أمور لم يرها، ولكنه عاينها بقلبه؛ لذلك يقول الله –عز وجل– لنبيه في القرآن ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ [الفيل ١]، {ألم تر} وكأنه لابد أن يوقن كأنه رأى هذه الأحداث، فحينما يقوم النبي –صلى الله عليه وسلم– يحدثهم عما رأى بقلبه لا عما سمع، فيكون الكلام مُكتسبًا طعم اليقين.

حقائق سوف تحدث

ارجع إلى هذه السورة اقرأها مرات ومرات، اقرأها على أولادك، على زوجتك، على الناس، ولا تستعمل أسلوب الخطاب، أنتَ تحدثهم عن حدث سيحدث بالفعل.

{القارعة* ما القارعة *وما أدراك ما القارعة *يوم يكون الناس...*وتكون الجبال...*وأما من ثقلت... *وأما من خفت...}، فأنتَ تتكلم عن حقائق سوف تحدث، هذه حقائق قرآنية سوف تحدث قام بها النبي –صلى الله عليه وسلم– ليقرع بها أسماع الناس، فمن أراد أن يسير على درب النبي –صلى الله عليه وسلم– في دعوته، في تحذيره للناس، في خوفه علي الناس فليتحرك بالقرآن، فليُحدث الناس عن هذه الحقائق.

فالنبي –صلى الله عليه وسلم– أُرسل رحمةً للعالمين، فمن رحمة النبي –صلى الله عليه وسلم– بالناس أن ذكرهم بهذا المصير الأخروي، أن كلمَهم كلامًا يشد انتباههم حتى يأخذهم من هذه الدنيا التي زُينت

فهي تأخذ العقول والقلوب، فلا بُد من خطاب قوي يأخذ أيضًا بالعقول والقلوب من غفلتها لهذا نزل الوحي، هكذا غير القرآن الصحابة، هكذا أثر القرآن في المشركين، فآمن من آمن، وجحد من جحد.

أسأل الله –عز وجل– أن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، اللهم استعملنا ولا تستبدلنا، اللهم إنا نسألك حسن الختام، اللهم إنا نسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مُضرة ولا فتنة مُضلة، اللهم اجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، ربنا اجنبنا وبنينا أن نعبد الأصنام، ربنا اجعلنا مقيمو الصلاة ومن ذرياتنا، ربنا وتقبل دعاء، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنتَ أستغفرك وأتوب إليك.